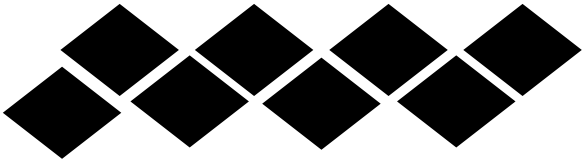

مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

الثنائيات الضدية وتمثل البيئة في السرد الروائي عند إبراهيم الكوني

لمياء خليل محمود محمد

مقيدة ومسجلة بالدراسات العليا في قسم اللغة العربية

كلية الآداب – جامعة جنوب الوادي

أ.د. محمد أبوالفضل محمود بدران

أستاذ الأدب والنقد – كلية الآداب – جامعة جنوب الوادي

د. ثابت محمود هاشم

مدرس الأدب والنقد – كلية الآداب – جامعة جنوب الوادي

DOI: 10.21608/qarts.2024.289217.1955

مجلة كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي – المجلد (٣٣) العدد (٦٣) أبريل ٢٠٢٤

الترقيم الدولي الموحد للنسخة المطبوعة ISSN: 1110-614X

الترقيم الدولي الموحد للنسخة الإلكترونية ISSN: 1110-709X

موقع المجلة الإلكتروني: https://qarts.journals.ekb.eg

الثنائيات الضدية وتمثل البيئة في السرد الروائي عند إبراهيم الكوني

الملخص:

تتمثل الثنائيات الضدية في البيئة في الكثير من الصور مثل، (الموت/ الحياة)، و(الليل / النهار)، و(الجفاف/ المطر)، و(العدل/ الظلم)، وغيرها.. من صور الحياة التي تمثل التقاطبات جزءًا أساسيًا من مقوماتها. تتصل هذه الثنائيات بالبيئة والكون المحيط بالبشرية اتصالًا لا تنافر فيه. فهي تتوازي معًا محدثةً وحدة هذا الكون وتماهيه، كما تحدثت دكتورة سمر الديوب في كتابها "الثنائيات الضدية دارسات في الشعر العربي القديم" عند تعريفها. وقد ناقش البحث تعريف الثنائيات لغةً واصطلاحًا، وهي في المعجم الفلسفي عبارة عن "الثنائي من الأشياء ما كان ذا شقين...". وقد تناولت الفلسفات العديد من التقسيمات لها؛ كالثنائيات الاجتماعية (الغنى/ الفقر)، والثنائيات السياسية (العدل/ الظلم)، وغيرها...

أما عن استخدام الأديب إبراهيم الكوني لها؛ فقد تمثلت في رواياته بكثرة وتحديدًا في نصوصه (التبر، ونزيف الحجر، و واو الصغرى)، فقد كانت إسقاطًا وفلسفةً يود الكاتب طرحها من خلال هذه الظاهرة الأدبية، ليبين قوة المفارقة بين المتضادين، بل ويبين أيضًا قدرته الأدبية في التقاء الثنائيات داخل كتاباته.

فقد مثلت رؤاه الفلسفية والإبداعية، وقد وضح من خلالها عدة قضايا تمثل الوجود والحرية والهوية، وقد تناول البحث العديد من الثنائيات التي تعبر عن الصحراء والحياة فيها، وكيف تتغير الأمور من الحياة إلى الموت، والنماء إلى الجدب، والمطر إلى الجفاف، وغيرها من التمثلات التي تمتلأ بها الروايات، وقد تتعدد الثنائية الواحدة من خلال التفرعات التي تنشأ تحتها، كثنائية (الموت /الحياة) التي تندرج تحتها العديد من

الثنائيات ومنها: (السيل/ الجفاف)، (القوة/ الضعف)، (الليل/ النهار)، وغيرها مما يوضح به الكاتب التحول والتبدل الذي يطرأ على بيئة الصحراء. والثنائيات التي ناقشها البحث مرتبة هي: "(الصحراء/ الواحة)، و(الخير/ الشر)، و(الموت/ الحياة)، (الإنسان/ الحيوان)، و(القوة/ الضعف)، و(الحضور /الغياب)، (المقدس/ والمدنس).

ربما تتمثل فكرة النقد الحديث واستخدامه لتقنية الثنائيات الضدية في كونه جعل هناك اتساعًا فكريًا غير محدود عند النقاد، في جعل العمل الأدبي لغزًا تتبدى حلوله من خلال تعقيداته الفكرية، كما يظهر في كتابات الكوني.

الكلمات المفتاحية: البيئة، الثنائيات الضدية، إبراهيم الكوني.

الثنائيات الضدية (Binary Oppositions) لغةً واصطلاحًا:

لغةً:

تأتي من الجذر الثلاثي "ثني "باب الثاء فصل "النون والياء"، ومن معانيها في لسان العرب "ثني الشيء ثنيًا أي ضم بعضه على بعض"، "وضم واحد إلى واحد" و"الأمر يعاد مرتين"، "وأن يفعل الشيء مرتين"[١]. وتأتي دلالة الثنائيات على وجود طرفين، ومعناها اللغوي يدل على أكثر من واحد، وقد يكون شبيه أو نظير، أو ضد، فالعدد الواحد يشكل ثنائية مع طرف الثنائية الآخر.

اصطلاحًا:

أما المعنى الاصطلاحي فهو يختلف عن اللغوي وجاء تعريفه في المعجم الفلسفي: الثنائي من الأشياء ما كان ذا شقين، وهي القول بزوجية المبادئ المفسرة للكون، كثنائية الأضداد وتعاقبها، وثنائية الواحد والمادة ..."، فهي نظرة فلسفية عميقة، تتجاوز الجمع المباشر والسطحي بين الطرفين، فهما ليسا متناقضين بل متضادين، وهذان الطرفان مكملان لبعضهما، فحقيقة الوجود تنطوي على تقابل دائم بين طرفين، لكل منهما قوانينه الخاصة. [٢]

أما عن الفارق بينه وبين التناقض، أن الأخير له قانونه الخاص، فالقضيتان المتناقضان لا تصدقان معًا، ولا تكذبان معًا وإذا صدقت إحداهما كذبت الأخرى، فالثلج لا يكون

---

[١] – لسان العرب، ابن منظور، تحقيق (عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي) مجلد ،١. ط. دار المعارف، ص٥١١-٥١٢-٥١٣-٥١٤.

[٢] – الثنائيات الضدية بحث في المصطلح والدلالة: سمر الديوب، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية العتبة العباسية المقدسة، ط١-٢٠١٧م-١٤٣٩هـ، ص١٥-١٦.

أبيض وغير أبيض معًا، فالتناقض لغة يعنى هو إبطال بعض الكلام بعضه، فلا يكون هناك نور وظلام في وقت واحد، فهو التخالف والتعارض والإبطال. واصطلاحاً فهو القول بأن الشيء لا يمكن أن يكون حقًا وباطلًا معًا. [٣]وتمثل الثنائيات أساس المدرسة البنيوية، وهي مفهوم بنيوي في دراسات "**ليفي- شتراوس**"[٤] حول الأساطير. ولا تستخدم البنيوية الثنائيات من جهة الكلمات والمفاهيم فحسب بل من جهة تقاليد النص ورموزه.[٥]

فالنص الأدبي له بنية لغوية معقدة تتشابك فيه العلاقات شكلًا ومضمونًا وتتضافر لتقدم نصًا عميقًا، يكثر فيه التأويل، وتتنوع فيه القراءة، فالإبداع يتنافى مع البساطة والسطحية، ويتماشى مع العمق والثراء، يقول الزركشي: " اعلم أن في تقابل المعاني بابًا عظيمًا يحتاج إلى فضل تأمل"، فعلاقة التضاد تؤثر على القارئ فينفعل ويشحذ ذهنه، فكل ضد في المفارقة يلقي بظلاله على الطرف الآخر. [٦]

وقد أظهرت الثنائيات الضدية دور كبير في التعبير والإقناع، فهي تستخدم الحجة العقلية من خلال المقارنة بين المتناقضين لتبيين المفارقة الشاسعة بينهما، فهي تظهر ميزة الشيئين في التضاد، فالربط بين الأشياء المتنافرة يثير العواطف الأخلاقية والمعاني الفكرية. [٧]

٣-الثنائيات الضدية بحث في المصطلح والدلالة، مرجع سابق: ص٢٣.

٤ – كلود ليفي ستروس: عالم اجتماع وأنثروبولوجي فرنسي، يعتبر فيلسوف البنيوية أو المنهج البنيوي. الجزيرة،WWW.ajnet.me .

٥ – الثنائيات الضدية دراسات في الشعر العربي القديم، سمر الديوب، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق٢٠٠٩: ص٥.

٦ – الثنائيات الضدية في لغة النص الأدبي بين التوظيف الفني والذوق الجمالي، أ. علي زيتونة مسعود، جامعة الوادي، الجزائر، ص.١٦٣.

٧ – الثنائيات الضدية في لغة النص الأدبي بين التوظيف الفني والذوق الجمالي، مرجع سابق: ص١٦١.

وهي متواجدة منذ القدم، وخير تمثيل لها يرد في **(القرآن الكريم)**، يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿**إِنَّ فِي خَلقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرضِ وَٱختِلَٰفِ ٱلَّيلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلفُلكِ ٱلَّتِي تَجرِي فِي ٱلبَحرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآء فَأَحيَا بِهِ ٱلأَرضَ بَعدَ مَوتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّة وَتَصرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلمُسَخَّرِ بَينَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلأَرضِ لَأٓيَٰت لِّقَوم يَعقِلُونَ**﴾ **[البقرة: ١٦٤]**.[٨]الخير دليل على أن الكون يقوم على الثنائيات، كفكرة تُوضح بتضاد الأشياء.

ربما كان القصد من هذا المصطلح هنا ليس التضاد في الكلمات والألفاظ في بنيتها الخارجية والشكلية للنصوص الأدبية والشعبية كما يقول أ. محمد بوذينه، كأن نقول :(رجل – إمرأة)، أو (طويل– قصير)..بل هو تضاد في المعاني داخل بنية النص ومن خلال مساره الأدبي. كقولنا:(السلم– الحرب) ثنائية ضدية في المعنى وليس الشكل. وهى تشكل أبعادًا دلالية لا تخرج عن كونها إجتماعية إنسانية .ثقافية ، نفسية ، وفكرية.. وهذه الأبعاد تتجسد بداخل النص الأدبي من خلال ميول البنية العميقة التي يهدف صاحب النص بلوغها .[٩]

الثنائيات الضدية وتمثل البيئة في روايات إبراهيم الكوني :

لقد استخدم الكاتب والروائي إبراهيم الكوني[١٠] لغته الأدبية بأساليب بلاغية عديدة في طرح قضايا مهمة، فجاء بالثنائيات لا بمعناها السطحي الذي يبين تضاد الأشياء بل كان

---

٨ – القرآن الكريم، سورة البقرة: الآية ١٦٤.

٩ –الثنائيات الضدية وأبعادها الدجلالية في الأسطورة عند كلود ليفي شتراوس . أ.محمد بو ذينه، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها– العدد الثالث عشر– (ج١) .جانفي ٢٠١٨،جامعة الوادي – الجزائر، ص١٢٤.

١٠ – كاتب وأديب ليبي ، ولد في الصحراء الكبرى ، جنوب غرب ليبيا ، تحديدًا في جبل نفوسه، عام ١٩٤٨م، له العديد من الروايات والكتب في الفلسفة واللغة والأدب ، مايقارب المائة كتاب ، وترجمت كتبه للغات عديدة ، وقد حصل على العديد من الجوائز العالمية. إبراهيم الكوني ذاكرة الصحراء، مجموعة

مقصده الغوص في أعماق المعنى، فكانت أداة لتقريب مقصده البيئي والإنساني الذي ارتآه في كتاباته، فاللغة الأدبية ممتزجة مع خيال الكاتب، أعطت الثنائيات التي جاء من ورائها تفجير معان ودلالات عدة، فالواقع السردي عند الكاتب متجدد باستمرار من خلال تكاثف المعاني والدلالات. ومن هذه الثنائيات:

١. ثنائية(الصحراء/ الواحة): تعتبر الصحراء فضاءً طاردًا يتميز بالتغير والتبدل وعدم الثبات؛ فهو مكان تكتنفه الأخطار في أحايين كثيرة فلطالما قل المطر وشح الماء فيه، وقد تجتاحه السيول التي تدمر الحياة، وهى لا تعرف الاعتدال فطقسها متقلب المزاج، والحياة فيها تقوم على الأضداد، وقوى الكون فيها متعارضة(الأمطار/ ندرة المياه)،(السكون/ الغضب)، (شدة الحرارة/ شدة البرودة)، الصفاء/ الكدر)، (الصحراء الرملية/ صحراء الحمادة)، وتنطوي هذه المفارقات على بعد ديني غيبي، وتتسم بنبرة درامية، فهي تخفي ورائها حكمة لا يعرف كنهها إلا الله سبحانه وتعالى.[١١]

وقد عرف **دكتور حسن بحراوي** ثنائية المكان بمسمي (التقاطبات المكانية)، حيث يقول: "يعد المكان مسرحًا لثنائيات وتقاطبات هي التي تخلق التوتر الاعتيادي بين عناصر الفضاء الروائي وتعطيه طابعه الجدلي وتجربته الخاصة. غير أن التقاطب المكاني أكثرها أهمية بين الإقامة والانتقال، حيث انقسم على أساسه المكان إلى فضاءين منفصلين، هما أماكن الإقامة وأماكن الانتقال، وهذا المفهوم لا ينطبق فقط على الرؤية

مؤلفون، إشراف سعاد الصباح، تنفيذ هيئة تحرير دار سعاد الصباح للثقافة والإبداع .ج١- ط١- أكتوبر٢٠٢٢م.ص ٣٥-٣٦-٣٧-٣٨.

١١ - وجه آخر للصحراء في أعمال إبراهيم الكوني: د. حسن لكرومي، جامعة بشار- الجزائر، ص: ٩٨- ٩٩.

الهندسية للمكان وإنما أيضًا على الاتصالات العاطفية والقيم الاجتماعية والأخلاقية التي نصادفها في هذا الطرف من التقاطب". [١٢]

جاءت الثنائية **(الصحراء/ الواحة)** في رواية "**التبر**" ممثلةً لمعانٍ عدةٍ، وقد عرض الكاتب من خلالها عدة قيم وعادات، وخيالات، توضح الفرق بين الحرية التي تمثلها الصحراء، والقيد الذي تمثله الواحة، بين الخيال في الصحراء، وبين الجمود في الواحة، وقد وضح مفارقته من خلال الجدب في الصحراء، والاغتراب والحنين إلى الاستقرار في الواحة الرحيمة، يقول السارد: "**فمن في الصحراء لم يذق طعم الجدب؟ من لم يطرده الجدب؟ من لم يهاجر؟ من لم يغترب؟ هذه الأشياء قدر الصحراء. وكل أغاني الصحراء تعبير عن الشجن والجدب والاغتراب.. الاغتراب الأبدي والحنين الدائم للعودة إلى السكينة والأصل(...) حنين إلى تلك الواحة الرحيمة التي لا وجود لها(...) الواحة الأصلية(...) الواحة التي تعتبر واحات "فزان " كلها مجرد ظل بائس لها**". [١٣]

جاء الكاتب بهذه الثنائية**(الصحراء/ الواحة)**، موضحًا من خلال التضاد الذي يأتي به جمال الواحات و**(الحمادة الغربية)** تحديداً، ومبينًا المفارقة بينها وبين الصحراء الشرقية الرملية، وهذه المفارقة يوضح بها الكاتب طبيعة الحياة في الصحراء، فيصل لذهن القارئ القليل مما يعانيه الصحراوي، من تقلب في الحياة، ودائمًا ما يستخدم الكاتب الأسلوب الدرامي في تتابع أفكاره، وكل ذلك لتحفيز خيال القارئ وجذب انتباهه، فنجد في رواية التبر: "**الصحراء الرملية لا تعد بشيء. الصحراء الرملية خائنة. عدم. لا عشب، ولا شجر بري، ولا حيوانات برية. صحراء الحمادة جنة بالمقارنة مع هذه الجاحدة. إذا لم**

---

[١٢] – بنية الشكل الروائي "الفضاء والزمن والشخصية"، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي – بيروت، الدار البيضاء، ط١– ١٩٩٠م: ص ٩٨.

[١٣] – رواية التبر: إبراهيم الكوني، دار التنوير للطباعة والنشر، تأسيلي، بيروت – لبنان، ط٣–١٩٩٢م.: ص٦٨.

تجد شاة غزال أو ودانًا أعطتك أرنبًا. وإذا لم تجد أرنبًا استضافتك بعظاءة(...)، وإذا بخلت السماء بالأمطار رحمتك بنبق السدر من ثمار العام الماضي. يا إلهي. ما أرحم الحمادة. ولكن الصحراء لا تطعم إلا الرمل والغبار القبلي."[١٤]

ويوضح الكاتب المفارقة بين (الصحراء/ الواحة) من خلال فكرة الوجود والحرية، التي لا ينفك أن يذكرها في متنه الروائي، فالحياة في الواحة تكبل وتقيد من فيها، هي في عرف الطارقي سجن، حيث الناموس يمنع المكوث في أرض أربعين يومًا، وأن الصحراء هي الحرية، هي الخيال غير المحدود، يقول الكاتب مازجًا لغته الأدبية بفكره الفلسفي الدرامي: **"المكافأة في الصفاء والهناء والسكينة، في الهدوء وامتداد الخلاء. لا يعرف معنى الطمأنينة إلا من كان مكبلًا بقيود الواحات، بالوهق والدمية والوهم، بهموم الحياة ودسائس الناس. يعاند بالنهار ويسهر بالليل مهمومًا فلا تزداد القيود إلا ضيقًا وشراسة. كلما فك عقدة وجد أغلالًا جديدة تكبل يديه ورجليه وتلتف حول عنقه كثعبان الأدغال. كلما أطل برأسه وتخيل النجاة من الغرق تلاحمت قوى خفية وشدته إلى أسفل القاع(...)، أما هنا فإن العفاريت تموت عطشًا، ويبقى المدى في الخلاء والمدى في القلب. الصمت في الأذن والصمت في القلب. سكينة في الصحراء وسكينة في القلب. ماء عين الكرمة يغسل الجسد، والصحراء وحدها تغسل الروح. تتطهر. تحلو. تتفرغ. تتفضى. فيسهل أن تنطلق لتتحد بالخلاء الأبدي. بالأفق، بالفضاء المؤدي إلى خارج الأفق وخارج الفضاء. بالدنيا الأخرى. بالآخرة. نعم بالآخرة(...) في المتاهة العارية، حيث تلتقي الأطراف الثلاثة: العراء – الأفق – الفضاء لتنسج الفلك الذي يسبح ليتصل بالأبدية. بالآخرة".** [١٥]

---

[١٤] – التبر: مرجع سابق، ص٧٩.

[١٥] – التبر: ص١٢٦.

كل الموصوفات هنا تُنبئك بالحرية، حيث لا قيود، لا حدود، عالم يجعل الروح تسمو عالم الصحراء، حيث الفضاء المنكشف تعلو فيه الروح إلى خارجه إلى الآخرة، لقد أطلق الكاتب العنان لفكره، لرؤاه، في الوجود وفي الحرية، لا أحد يسيطر عليك وأنت ابن الصحراء. أخرج الكاتب الروح من دوائر محدودة إلى اللا محدود، اتساع ثم اتساع..، دائرة القلب، ثم دائرة الصحراء ثم دائرة الفضاء إلى الآخرة. فهذه الثنائية جمعت مفارقات عدة، بين قيود الواحة والأرض، وبين الصحراء بحريتها وفضاؤها وأفقها.

فهذه الثنائية عكست الجدل بين الصحراء التي هي الحرية والسكينة والهناء، التي تُمثل بحث الإنسان الدائم عن الأمل والبحث، فالصحراء تعبر عن الانتقال من مكان إلى مكان، وهذا هو العرف الذي يسير عليه أهل الصحراء، وبين الواحة التي تمثل العبودية والقيد والاستسلام، ففضاء الواحة مغلقًا، فبمجرد الاستقرار، يتوقف الأمل في البحث، يتوقف الناموس. توضح هذه الثنائية تخبط "**أوخيد**" بين البقاء والمكوث، وبين الرحلة الأبدية التي لا تنتهي، وتولدت من خلالها معان وقيم وجودية، مثابها "**أوخيد**" من خلال الفتنة والوهق والدمية، مثلت الثنائية، الأبعاد المكانية والزمانية، والقيمية، من حيث الوجود ومن حيث الهوية. فخرجت من بينها ثنائية (الارتباط/ الخلاص)، (الحرية/ العبودية)، (الترحال/ الاستقرار).

ويكمل الكاتب هذه الثنائية **(الصحراء/ الواحة)**، من خلال "**واو الصغرى**"، فمثلت رواية "واو الصغرى" هذه الثنائية خير تمثيل، وقد تبدت في الخروج، فالرواية تسير على حدث واحد وهو البحث عن الواحة "واو الصغرى"، وقد ناقشت الصحراء وقسوتها، والواحة وجمالها، والكاتب يظهر الدلالات الخفية للمعنيين من خلال طرح قضية البقاء في الأرض والترحال، الالتزام بالناموس الذي يقر على أهل الخلاء عدم المكوث في أرض أربعين

يومًا، ووضحت سبب الهجرة من الصحراء إلى البحث عن الفردوس المفقود كما يسميه الكاتب "الواحة".

وبدأت الثنائية التي توضح من خلال التضاد الفرق بين الصحراء الغربية والشرقية: **"لا أعرف كيف يطيق أهل الحمادة الشرقية أن يعانوا من الجدب، ويهلكوا من الجفاف، وبجوارهم ترقد بساتين تكفي لإطعام عشرات القبائل ". قال الدليل: "هناك يتخفى أول سر. العابر وجد نفسه يدب في الحمادة الشرقية فاستمرأ الأمر، وظن أنه يسعى في فردوس الوعد، وأقنع نفسه بحكم العادة، أنه سيهلك حتمًا لو جرؤ على الخروج غربًا، لأن قدمه لم تطأ الحمادة الغربية، (...) كيف ينجو قوم لا يريدون أن يروا أبعد من أنوفهم؟** [١٦]

فبسبب الناموس لا يستطيع أهل الصحراء الخروج، يجاورون الجدب، ويمثل الكاتب الرضوخ والاستسلام لهذه العادة التي تفقدهم حياتهم، مبينًا من خلال الثنائية معانٍ أخرى غير إظهار جمال الحمادة الغربية، تتمثل في الخروج من ظل العبودية، لقد ناقش الكاتب هذه الثنائية طارحًا من خلالها كيف للإنسان أن يختار العادة ويصير بسببها عبدًا، بالرغم من مقدرته أن يختار الحرية، فقضية الحرية تفرعت من هذه الثنائية، ويكمل الكاتب ليثبت فكرته: **" ذكرني بعبد أردت أن أكرمه فأعتقته، فهل تدري ماذا كان جوابه على العطية؟ رمى بنفسه تحت قدمي، وقبل نعلي باكيًا، وقال إن الحرية عبء لم يخلق لم اعتاد العبودية".** [١٧]

---

[١٦] – **رواية واو الصغرى: إبراهيم الكوني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – ط١–١٩٩٧م: ص١٤٢–١٤٣.**

[١٧] – **واو الصغرى: ص١٤٣.**

ويكمل الكاتب: " **علمتنا الصحراء أن نذهب ونحيا في أرض أخرى غير الصحراء. إذا حدث وكسبنا عدوًا، فاحترس أن تسكن الصحراء بعد اليوم يا غراب النحس**". [١٨]

جاءت المفارقة الصارخة بين الحمادتين، مستنكرًا كيف يترك الإنسان الجنة في مقابل حياة الجدب في الحمادة الشرقية: " **أخذني الزعيم في رحلة إلى الحمادة الغربية لتفقد أمطار السحب العابرة. هناك وجدنا ربيعًا لم تشهده عين، ولم يخطر لكم وصفه على بال. لا أدرى لماذا تتشبثون بحياة الجدب في الحمادة الشرقية، وتتركون في الغربية ربيعًا لم يخطر لكم على بال** ". ويكمل بذكر الثنائيات داخل ثنائية الصحراء والواحة: "**مولانا أن هذا حال أهل الصحراء دائمًا، استمرأوا القحط، رجعوا عن البساتين، لأنهم لم يألفوا الخروج غربًا**". [١٩]

ويصف الكاتب الواحة بعد أن أصبحت واحة فريدة تتحدث عنها أساطير الأولين: " **في ذلك الخلاء الرمادي العابس، لعين عابر السبيل، مدينة عجيبة من مدن الجن، أو واحة فريدة من الواحات المفقودة التي تتحدث عنها أساطير الأولين** ". [٢٠]

تشكل هذه الثنائية (**الصحراء/ الواحة**) عمق الأزمة التي يعيشها "**أوخيد**" فبقدر بعد المسافة بين الفضاءين (الصحراء/ الواحة) تتفاقم الأزمة وتتعمق وتتجاوز القيم المكانية إلى منظومة القيم الوجودية والجوهرية مثل العبودية، والهوية الثقافية والاجتماعية والتاريخية، والحرية، وتمثل الواحة الاستقرار والعبودية والقيود.

---

[١٨] – **واو الصغرى: ص١٧٥.**

[١٩] – **واو الصغرى: ص١٦١.**

[٢٠]– **واو الصغرى: ص٢٤٠.**

٢. ثنائية (الخير /الشر):

وقد تمثلت هذه الثنائية في العديد من روايات الكوني، وربما تمثل أساس الثنائيات، وأساس الحياة، وقد أولى بها الكاتب عناية خاصة في رواية "**نزيف الحجر**" حيث جاءت موضحةً في قصة "**هابيل**" و"**أسوف**"، وكذلك في ثنايا الرواية حيث تمثيله لشر بني آدم حول بنى جنسه والحيوانات والبيئة من حوله. وقد مثل الكاتب "قابيل " بالشر الإنساني في الحياة وقد جاء بالاسم على حقيقته دلالة على تأكيد مصدر العداوة البشرية، ومثل "**أسوف**" بالإنسان الخير في هذه الحياة، وهو ما يقابل في القصة "**هابيل**" ابن سيدنا آدم عليه السلام.

وجاءت تمثلات الثنائية داخل الرواية من خلال حديث الغزلان حول ابن آدم، وقد أنهكه العطش، فتقدمت الغزالة الكبيرة قائلة: "**كافأ الخالق المخلوقات فأوجدها في الحياة، ثم رأى أن يمتحن صبرها فأوجدها في الصحراء، وجعل سره في الماء المعدوم، وجعل سرًا آخرفي القربان القاسي(...) ابن آدم يموت عطشًا ولن ينقذه إلا الدم"، ومن ثم خرجت غزالة قاسية: "ولكن ابن آدم شرير وقاتل. هل نسيت يا أمنا الكبيرة كيف سفح دم عشرات الرؤوس من عشيرتنا من تلك المذبحة الفظيعة؟ كيف نضحي بأنفسنا في سبيل السفاح الرجيم**". [٢١]

وقد وضح الكاتب الخير المتمثل في الغزالة والشر الذي يمثل بني الإنسان، في مفارقة يوضح بها الكاتب كيف يعامل الكون الإنسان الذي يعيش معه، وكيف يبادل الإنسان

[٢١]– رواية نزيف الحجر: إبراهيم الكوني: دار التنوير للطباعة والنشر، تأسيلي للنشر والإعلام، بيروت– لبنان – الطبعة الثالثة ١٩٩٢م: ص١١١.

الكون بكل عدائية ووحشية، لقد وضحت الثنائية كيف تعلو صفات الخير عن الشر، وكيف تتضحى الكائنات الحية بحياتها فداءً للإنسان.

وجاء "**قابيل**" في أوصاف الرواية ممثلًا الشر، الرجل النهم، الذي يأكل اللحم بشراهة:" **قابيل أيضًا لقبه أقرانه بـ "ابن يم يم" بعد أن اشتهر بحبه للحم النيء، يشتمه الصغار: يا منحوس يا آكل لحم أمه وأبيه بالتبني(...)، يهجم عليهم، فيفرون، يكشف عن أسنانه كي يخفهم، ويطقطق بها مقلدًا زنوج "يم يم".** [٢٢]

وقد مثلت الثنائية في وجهين آخرين، وهما يمثلان الجنس البشري، "**قابيل وأسوف**" رمزا الشر والًخير، فحمل أسوف رمز الخير في الرواية، وقد ضحى بنفسه حتى يحافظ على "الودان"، وفي المقابل مثل "قابيل آدم" رمز الشر الذي يسفك ويقتل منذ الرواية وآخر ضحاياه كانت "أسوف" بعد أن قتله: " **لوح قابيل بالسلاح في الهواء مهددًا، فتراجع مسعود. تسلق الصخرة (...) انحنى فوق رأس الراعي المعلق. أمسك به من لحيته، وجر على رقبته السكين بحركة خبيرة. خبرة من ذبح كل قطعان الغزلان في الحمادة الحمراء** ". [٢٣]وهنا من خلال الثنائية بين بها الكاتب عداء الإنسان لبني جنسه والكون من حوله.

٣. ثنائية (الموت/ الحياة):

وضح الكاتب هذ الثنائية من خلال عدة معان مختلفة، أو بالأحرى عدة ثنائيات تفرعت تحت هذه الثنائية الأم، ومثال لها ما جاء في "نزيف الحجر" من خلال وصف مشهد موت أم "أسوف" من خلال السيول، وكيف للسيول أن تهب الحياة لكائنات وتميت أخرى،

---

[٢٢] – **نزيف الحجر: المرجع السابق، ص ٩٥.**

[٢٣] – **نزيف الحجر: ص١٤٥.**

تحت قوانين الطبيعة، وقد حمل الفصل الثالث عشر الموسوم ب "رحلة الجسد "، والفصل الرابع عشر الموسوم "النقيضان" توضيح هذه الثنائية وما يندرج تحتها من ثنائيات، فالفصل الثالث عشر "رحلة الجسد" وصف قسوة السيول مع جسد أمه، التي حاولت التمسك بالحياة بشتى الطرق، موضحًا الكاتب من خلال الفصل تمسك الإنسان بمرحلة ثالثة بين الحياة والموت، يعبر فيها الإنسان إلى الموت قبل أن يموت، وقد تفرعت من هذه الثنائية (الموت/ الحياة) ثنائيات أخرى، تعود إليها، (الوجود/ العدم)، و(السماء/ الأرض).

جاء الكاتب ممثلًا لثنائية (الموت/ الحياة) في رواياته بعدة أوجه، فقد وضح وفصل وبين طبيعة الصحراء، وقسوتها التي تميت، وبين الصبر فيها الذي يمدك بالحياة، كما **يقول الكاتب** في رواياته: **"الصبر هو الحياة"**، وقد جاء بتوضيح هذه الثنائية كما بين فيها المرحلة الثالثة التي تفصل بين (الموت/ الحياة)، ففي محاولة" أسوف" العيش بعد أن حاول اصطياد "ودان" فأذاقه صنوف العذاب، ثم أرداه وهو لا يعرف إن كان ميتًا أم حيًا، يقول الراوي: **" قام بمحاولة بطولية ثانية. استجمع القوة الباقية، الأخيرة، من القلب، وزحف حثيثًا عبر امتداد الوادي. كان زحفًا بائسًا. حركة أخيرة. الحركة التي تقرر الموت من الحياة، حتى لو كان رأسه مفصولًا عن جسده، المعزة تسحب الهواء وتتنفس طويلًا بعد ذبحها، رأسها مفصول عن جسدها. أما الودان المذبوح فينهض واقفًا بدون رأس، ويجري مسافة طويلة في العراء قبل أن يستسلم نهائيًا ويسلم أمره لله. والعظاية الحال مع العظاية أسوأ. تذبحها في الصباح وعندما تلقيها في النار لتشويها في الليل، لابد أن تقفز من الجحيم وتجري في العراء. ثمة حياة أخرى بين الموت والحياة، ثمة حالة ثالثة ليست عدمًا وليست وجودًا، هو الآن في الحالة الثالثة،**

يزحف عبر الوادي كالأفعى، محجوب العينين. لا يرى شيئًا. ولا يعي شيئًا". [٢٤]وقد مثل الكاتب هنا طرق صراع الحيوانات المختلفة مع الموت، وقد كان "أسوف" في المرحلة الثالثة التي تقرر الموت أم الحياة.

ويوضح الكاتب صراع أم "**أسوف**" مع السيول، المتمثل في صراع الحياة والموت، كيف قاومت بكل الطرق أن تعيش، ويبين قوة السيل في تقطيع هذه العجوز إلى أجزاء: **"قبل الجفاف أغرقت السماء أودية الصحراء بالسيول. تلك السيول التي فاجأتهم، وجرفت العجوز من الكهف ليجد بقاياها في "أبرهوه" بعد ثلاثة أيام. مزقت الأحجار أعضاءها(...) الرأس مهشم(...) العين اليمنى سقطت(...) وجد مع الرأس جزءًا من الرقبة تعلوه طبقة من الطين(...) اليد اليمنى ما زالت تمسك بأشواك الطلح قبل أن تنسلخ من بقية الجسد،فلمع العظم في عدة أجزاء من الذراع(...) انفصل الجسد عن الذراع التي بقيت ممسكة بشوك النجاة . شوك الحياة، إنها تلك الحالة. الحالة الثالثة بين الموت والحياة، الوجود والعدم، السماء والأرض(...) وعاشها في ذلك اليوم وهو يزحف في الوادي باحثًا عن قطرة الماء بين الموت والحياة مسافة قد يعود منها المخلوق إلى الحياة، وقد يعبرها إلى الموت. يمضي إلى العدم والظلمات".** [٢٥]

ثم وضح الكاتب من خلال السيول التي تتضح من خلالها هذه الثنائية، كيف ظهر النقيضان(الموت/ الحياة)، و(العطش/ السيول)، (الأرض/ السماء)، (الوفرة/ القلة). جاء السيل بعد أن عم الجفاف، وتغيرت الصحراء: ومن خلال ثنائية (السيل / العطش)،

---

[٢٤] – **نزيف الحجر: ص٧٢.**

[٢٥] – **نزيف الحجر: ص٧٧-٧٨.**

تظهر المعاناة، وتظهر الحياة، ويموت من قضى عليه العطش أو السيل: "**الإنسان في الصحراء لابد أن يموت بأحد القيضين: السيل أو العطش**". [٢٦]

ومن صور الحياة التي جادت بها السيول: " **في ذلك العام اكتظت الأودية والسهول وأطراف الجبال بالغابات والنباتات والأعشاب(...)، ما أن تهطل الأمطار وتعم السيول حتى تخضر الأرض العطشى القاسية الكئيبة بألف نوع من النبات.(...)، كأن البذور المبثوثة في العدم، في ثنايا الرمل، بين الصخور الصماء، تنتظر هذه اللحظة، تتلهف على لقاء السماء بالأرض**". [٢٧]

وتأتي رواية "**نزيف الحجر**" وهي تختم هذه الثنائية، موضحة مرة أخرى الحالة الثالثة التي تكون بين (الموت/ الحياة) الحياة التي رأى فيها "أسوف" البرزخ كما تحكي الرواية: "**لكن تلك الحادثة كانت في عنفوان الشباب، أما هذه المرة فإن العجز يجبره أن يدلي رأسه ويحني هامته (...) ولولا الشيخوخة لما استسلم مبكرًا للحالة الثالثة في حادثة الهاوية قاوم طويلًا قبل أن يعاني من تلك الحالة. بل صمد حتى انتزعه الودان العجيب(...) هو الآن يبتعد عن الحياة، ولكنه لا يدخل إلى الموت. إنه يقرع بابًا يقع بين الموت وبين الحياة**". [٢٨]

وتأتي الثنائية في "**التبر**" موضحة الصراع مع الحياة مع عدم وجود الماء، فالماء في الصحراء حياة والعطش فيها موت، فتفرعت منها ثنائية(العطش/ الماء)، تقول الرواية: " **أحس بالعطش، فتذكر الماء. نسى أنه في خلاء مقطوع بلا قطرة ماء. هول المعركة أنساه أخطر حجاب في الصحراء: الماء! بدون الماء لن تتحقق أي معجزة في**

---

[٢٦]- نزيف الحجر: ص٧٩.

[٢٧]- نزيف الحجر: ص٧٩- ٨٠.

[٢٨] - نزيف الحجر: ص١٤٣.

الصحراء. حتى إذا تحققت معجزة فإن انعدام الماء يحولها إلى وهم. كل الدنيا وهم بدون ماء. ما فائدة الشفاء بدون ماء؟ جاء الشفاء وغاب الماء. جاءت الحياة، فأقبل الموت(...) النعيم مستحيل. إذا حضر الشيء غاب نقيضه. يحلو للشيخ موسى أن يقول: الكمال لله. في الشباب يفتتح الطيش، ولا تحل المعرفة إلا في العجز والشيخوخة".

[٢٩]فقد نجح الكاتب في إجراء المقابلة بين الموت والحياة، فحافة البئر تمثل الموت في الحياة، وقاع البئر نفسه يمثل الحياة بداخل الموت، لقد تشبعت هذه الثنائية بالفكر الفلسفي والصوفي للكاتب، فالدنيا وهم، كما أنه دلل على فكرته بتواجد شخصية الشيخ موسى ، وهو شخصية صوفية. والتضاد هنا يأتي بمعان أعمق من التي وردت في النص، فالبئر كما يمثل الحياة يمثل الموت، وتأتي المعرفة في الشيخوخة ، وهو مايدل على نقصان الأشياء جميعًا دون الله سبحانة وتعالى.

ومن أكثر المشاهد التي صور بها الكاتب الثنائية(الموت/ الحياة)، مشهد السيول في "**واو الصغرى**"، وقد جاء الفصل الثاني عشر الموسوم ب"السيول"، موضحًا تلك الثنائية، وكان الوصف البيئي لهذا الموقف المهيب يزداد حدة مع ازدياد هجوم السيل: "**يتململ المارد، يتخلى الماء عن اسم الماء ليصير ماردًا يستعير اسم السيل، يدرك الصحاري السفلية، يمد يدًا خفية ليبدأ انتزاع القرابين، يختطف أعشاش الطير، يستخرج ضحايا من أعمق الحفر، فئران يفرون في وجوه الحيات،(...)، يباغت الرعاة ليلًا، فيداهم الأغنام والمعز والجداء، ليأخذ من القطعان نصيبًا مهولًا(....)، يجر السيف ضحاياه إلي الأحاضيض الواطئة في صحراء الجنوب، تهجر القبيلة الأخبية المهددة**

[٢٩] – التبر: ص٤٤.

بالغرق،(...)وعندما يحل المساء، ويجد الرعاة أن المارد قد شتت شملهم ،(...)، يرتفع صوت الهدير، ويتكلم الماء نيابة عنهم أمدًا طويلًا".[٣٠]

ويكمل الكاتب ثنائية(الموت/ الحياة) المتمثلة هذه المرة بماء البئر، في وصف اشتدت وتيرته، واشتدت وتيرة لغة الكاتب معه، فجاءت كلماته متتابعة كتتابع الماء بعد تفجر البئر، معبرةً عن قوة المياه وقوة وصفه، مزجها بفلسفته وصوفيته الأدبية: " **تابع عابر السبيل وهو يتبدل ويتحول سلسبيلًا حقيقيًا. تابع العابر الخفي وهو يستمد من المجهول جسمًا. تابع العابر الخالد وهو يتجمع، ويتبدى، ويتكاثر، ويستعير لسانًا بتدفق، ويجري. تابع الأعجوبة وهي ترطن، وتفيض، وتغمر الأحجار،(...) تلوى الكائن في سيره، وعبر، في سفره الخالد، إلى القيعان، فأبصر المريد، في عبوره، سر المولى وميلاد الحياة الأولى".** [٣١]

أما عن طرف الثنائية الآخر وهو(الحياة)، كيف أعاد الماء الحياة بعد أن كان مصدر موت: "**ولكن استمرار تدفق الماء، استطاع أن يبدل مسلك الأرض أخيرًا، فازدادت أشجار الرتم في قاع الوادي، إخضرارًا، وفاحت زهورها في كل الصحراء المجاورة،(...)، في السنوات الأولى أنبتت أعشابًا برية عجيبة، لونت المسافات كلها بفرش بهية،(...)، في السنوات التالية شب النخيل، وكبرت أشجار الرمان والتين، وبذروا خضارًا أيضًا، وحصدوا الزروع، وكسبوا غلالًا كانوا يقايضونها من تجار القوافل بأثمان باهظة".** [٣٢] وهنا وضح الكاتب تغير الحياة بسبب وجود الماء، فبرغم كونه قاتلًا إلا أنه يهب الحياة.

---

٣٠ – واو الصغرى: ص١٩٠– ١٩١– ١٩٢– ١٩٣.

٣١ – واو الصغرى: ٢٧٣.

٣٢ – واو الصغرى: ص٢٣٨.

ثم يكمل في عرض الثنائيات المتداخلة بداخل هذه الثنائية(الموت/الحياة): " **تحولت الرقعة العارية، الكئيبة، الميتة، بستانًا يراه المسافرون من مسافات بعيدة جدًا**". [٣٣]فمن كونها عارية من الخضرة، إلى بستان تكسوه الخضرة، ومن كآبة اللون إلى لون الخضرة المبهج وألوان الورود الزاهية، ومن مكان صحراوي ميتًا إلى بستان تعج به الحياةبشتى ألوانها.

ومن الثنائيات التي ناقش بها الكاتب وجهة نظره الفلسفية في الحياة، وقد مثل لثنائية (الخوف والشجاعة) ربما نستطيع أن ندرجها تحت ثنائية (الموت /الحياة)، تقول الرواية في ثنائيات متداخلة توضح المبادئ والقيم: "**أين الشجاعة؟ أين النبل؟ أين الخوف من ارتكاب العار؟ أين تلك الأشياء التي أنفق والده حياته يحاول أن يزرعها في قلبه؟ قال له إنه سيعتبر نفسه حيًا مادامت هذه المبادئ. إذن خلود الوالد في موته. ولكنه لن يخون أي مبدأ إذا أراد الحياة (...)، الصحراء الأبدية الحزينة والأغنام المتقاذفة السعيدة، والغزلان الشاردة الرشيقة**". [٣٤]

فالحياة عند الإنسان يجب أن تقوم على النبل ، أما إذا ترك أحدها فقد خان مبدأه في الحياة وقد مات حيًا. وهنا يمثل الكاتب لنظرته في العيش حيث المبادئ هى من تجعل من هذا الإنسان الذي ينبض بالحياة حيًا لا شيء غيرها.

---

٣٣ – واو الصغرى: ص٢٣٩.

٣٤ – نزيف الحجر: ص٦٣.

٤. ثنائية (الإنسان/ الحيوان):

لقد لعب الحيوان ورمزه دورًا مهمًا في المناقشات النقدية، فقد ارتبط بالخيال البيئي، أكثر من غيره من المجازات والرموز، فكان ارتباط الحيوان بالإنسان ارتباطًا وثيقًا أكثر من غيره من أجزاء الطبيعة الأخرى. [٣٥]

فمثل الحيوان في روايات الكوني التيمة الخاصة التي اتكأ عليها، وقد جاء ذكره ممتزجًا حينًا مع الإنسان في تماهٍ تام، ومرةً يأت مفردًا، فنجد "الودان"، و"الغزال" في رواية "نزيف الحجر" ومثلا مع الإنسان ثنائية (الإنسان / الحيوان)، فانطلقت الثنائيات لتكشف لنا عن طرق سرد عرض القضايا التي حملها الكاتب في ثنائياته، وجاءت لتوضح لنا طبيعة التماهي بين الكائنات الحية، فالكون علاقته بين كائناته موطدة فعلاقة الإنسان مع كونه تتجاوز نفسه وما يحيط به إلى جميع الكون، بل وتتجاوز علاقته بالأحياء إلى الجمادات، وتلك غاية النقد البيئي.

ومن هذه الثنائيات التي امتزج فيها (الإنسان/ الحيوان): التماهي والتآخي بين الغزال والإنسان فتقول الغزالة الحكيمة لإبنتها التي استنكرت فعل ابن آدم: "**فعلت ذلك من أجلي ومن أجلك كي ينعم نسلنا بالأمان عبر كل الأجيال. دمها آخى بين ملتنا وملة آدم نحن الآن وابن آدم أخوة بالدم. هذا الحصن اشتريناه بثمن قاس**". [٣٦]

وتظهر هذه الثنائية من خلال تراسل الصفات بين الإنسان والحيوان، فامتلك الإنسان ما يتصف به الحيوان والعكس: " **تسكع الجندب اللئيم عبر سفح السلسة متفقدًا التجويفات**

---

[٣٥]- **النقد البيئي مفاهيم وتطبيقات، مجموعة مؤلفون، تحرير: أبو المعاطي الرمادي، معجب العدواني، مؤسسة الانتشار العربي– الشارقة– الإمارات، ط١–٢٠٢٢م، ص١٥٧–١٥٨.**

[٣٦]- **نزيف الحجر: ص١١٣.**

والصخور". [٣٧] فصفة اللئم هي صفة يحملها الإنسان الذي يتصف بالخبث والدهاء، وصف بها الكاتب الجندب كي يوضح بها تصرفات هذا الحيوان. ومن خلال السرد يوضح لنا تبادل الأدوار، فالكاتب يصر على قضيته البيئية التي تجاوز بها الإنسان نفسه إلى ما يحيط به من كائنات، فأدب الكوني قادر على إحياء الوعي البيئي لدي القراء في العالم، بما يحويه من قضايا مهمة.

ويبين مشهد التحول بين " **أسوف و" الودان**"، التماهي بين (الإنسان/ الحيوان)، فأثناء جوع "قابيل" وتعطشه لأكل اللحم، قد انتابته هلاوس مرضية جعلته يرى "الودان" يحمله ويطير به في الصحراء: "**دعاه الحيوان الخفي إلى رحلة. تاها معًا في الصحراء، عبر به الحمادة وهو يمتطي ظهره(...) لكن الجوع كان أكفر من كل الأمراض. تململت الدودة الشيطانية في أسنانه، فنهش رقبة الودان، صعد الحيوان قمة جبل عالية، فاكتشف أنه يجلس على ظهر رجل بائس لم يعرفه من قبل، نحيل الجسم، طويل القامة، تقطر من رقبته الدماء**". [٣٨]وقد كان تفسير هذه الرؤيا، بأن هذا الحيوان قد تمثل في روح أسوف، وتمثل أسوف في جسد الودان، موضحة كيفية قتل "قابيل" ل "أسوف" بعد ذلك على الصخرة العظيمة.

ومن خلال "**التبر**" تظهر الثنائية في التصدير الذي جاء به الكاتب من العهد القديم سفر الجامعة الإصحاح الثالث، وبدأ به الرواية: "**ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة، وحادثة واحدة لهم. موت هذا كموت ذاك، ونسمة واحدة للكل، فليس للإنسان مزية على البهيمة لأن كليهما باطل**". [٣٩]

---

[٣٧]- **نزيف الحجر: ص١٢٥.**

[٣٨] - **نزيف الحجر: ص١٣٩.**

[٣٩] - **التبر: ص٦.**

وهنا يجمل الكاتب الثنائية، ويوضح مبدأ المساواة بين الإنسان والحيوان، وأن كليهما يصابان بنفس الحوادث، ويشعران بنفس الشعور.

كانت في هذه الثنائية علاقة تماهٍ تام بين "**أوخيد**" و**المهري**، فكان ينظر "أوخيد" للأبلق فيرى نفسه فيه، لم يكتفِ بذكر محاسنه لكن هناك تطور كبير، ظهرت صوره منذ بداية هذه العلاقة، فأوخيد هنا هو المهري، والمهري هو أوخيد:" **هل سبق لأحدكم أن شاهد مهريًا أبلق؟(...) هل سبق لأحدكم أن رأى مهريًا ينافسه في الكبرياء في الشجاعة والوفاء؟ (...)هل رأى أحدكم غزالًا في صورة مهري؟(...) هل رأيتم أجمل وأنبل؟(...)**". [٤٠] كل هذه الصور التي عددها "أوخيد" لمهرية، ماهي إلا صفات له هو، رشيق، جميل وفي عنده كبرياء وشجاعة. فكانت الثنائية (الإنسان/ الحيوان) تصور فكرة الكاتب من أن الواحد للكل والكل للواحد.

يمتزجان فيفعلان نفس الأفعال والتصرفات، حتى العقاب البدني والمعنوي اشتركا فيه معًا، فقد اشتركا في غزواتهم الليلية، ومن ثم أصيب الأبلق بالجرب، وقد تم إخصاؤه، ومن ثم عُوقب "**أوخيد**" **بمعاناته مع مهريه وحزنه عليه، ومن ثم بالبعد عن مهرية، ثم بعده عن زوجه وبهذا يكون توافق مه المهري في الإبعاد عن الزوجة: "تكررت الغزوات حتى اكتشف أن أبلقه الرشيق قد وقع في غرام ناقة حسناء(...)، واعتاد هو أن يزور فاتنة من بنات القبيلة النبيلة"**. [٤١]

يعيش الصديقان نفس الحياة، وينتميان لنفس العائلة النبيلة، فأصلهم عريق، فنجد هنا "أوخيد" وهو ابن شيخ امنغساتن: "**يسرنا أن نستقبل ابن شيخ امنغساتن في**

---

[٤٠] – التبر: ص٧.

[٤١] – التبر: ص ١٣.

ديارنا"[٤٢]، والأبلق من السلالة المهرية النادرة، وهي تنسب إلى قبيلة مهرة بن حيدان كما وضح الكاتب.

وصل التماهي إلى حد التوحد، فكان "أوخيد" هو "المهري" والمهري" هو "**أوخيد**" كان كل منهما يعكس صفات الآخر، بل كان كل منهما مرآة للآخر يرى فيها نفسه، ويدرك بها عيوبه ومحاسنه:" **عندما يقولون إن المهري مرآة الفارس. إذا أردت أن تنظر في الفارس وتقف على خفاياه، فتفقد فرسه، مهريه، عليك بالمهري إذا أردت أن تعرف صاحبه. الآن أستطيع أن أقول إنك شاب لا ينقصك الكمال**". [٤٣]فالضدية هنا تأتي من قوة هذه العلاقة

وهنا يتبادل كل منهما الدور، فكلاهما شيء واحد، يتبادلان العشق، كما يتبادلان الحزن والصبر على الألم، كما يتبادلان الفراق:" **إذا أفلت الفارس من حسان القبيلة، فلا يجب أن يفلت المهري النادر من نوق القبيلة.**". [٤٤]

لقد زاد هذا الرباط بينهما عندما امتزج الدم بالدم، الأخوة بالدم أقوى من النسب: "**إذا اختلط الدم بالدم واتحد الجسد بالجسد ختم العهد بالأخوة الأبدية(...)، جلس خلف السنام، وأحاط خاصرته باللجام الجلدي. تمدد فوق ظهر المهري، والتصق الجسد المسلوخ. أحس بلزوجة الجلدة الحمراء(...)، شعر أن دمهما المتخثر اللزج يتمازج الآن ويختلط. هذا ما تسميه العجائز بالتآخي. عهد الأخوة. عهد الوفاء الأبدي. التحم الجسد بالجسد، واختلط الدم بالدم. في الماضي كانا صديقين فقط. أما اليوم فإنهما**

---

٤٢ – التبر: ص١٥.

٤٣ – التبر ص ١٦.

٤٤ – التبر: ص ١٦.

ارتبطا بوثاق أقوى. بالدم. أخوة الدم أقوى من أخوة النسب(...) الأخوة ليست سهلة"[٤٥].

تظهر هذه العلاقة بين الإنسان والحيوان، ويصورها الكاتب كعلاقة فريدة، عندما كانا شيئًا واحدًا، هذا التماهي الذي جعل "**أوخيد**" وأبلقه، ينتميان لوجود واحد، خُلقا معا قبل أن يكونا نطفتين:" **فرأى صداقتهما في الزمان الأول، قبل أن يولدا، قبل أن يكونا نطفتين فر رحم الأمهات، قبل أن يكونا خاطرًا، عاطفة في قلوب الآباء. قبل أن يكونا رغبة تسيطر على الجسد. قبل أن يكونا هباء في الفضاء الأبدي. عندما كانا صوتًا للريح. صدى لأغنية، نواح "امزاد" بين أنامل حسناء، زغرودة حورية في الفردوس. نعم. زغرودة إلهية لحورية رحيمة في ظلمة البئر**". [٤٦]هذه العلاقة التي استقرت في الفكر قبل الوجود ، انتشت هذه العلاقة معلنة توحدها مع الكون حو، وهى صدى لأغنية ، وهى نواح "أمزاد" وقد أتى الكاتب بالآلة ليوطن ثقافة الهوية التي يؤكد عليها أثناء سرده.

ومن الأوصاف التي اتصف بها العراف في "**واو الصغرى**" غراب النحس: "**قلت لك يا غراب النحس أن تذهب وتحيا في مكان آخر غير الصحراء إذا حدث وكسبت فيها عدوًا(...) هل سمعتم ما قال؟ لقد نعت مولانا "بغراب النحس". كيف نسينا أن كل القبائل تسمي العرافين غربانًا؟**". [٤٧]ومن المتعارف عليه في بعض القبائل أن الغراب مصدر شؤم بالنسبة للونه الأسود، وصوته.

---

[٤٥] – **التبر: ص٤٦– ٤٧.**

[٤٦] – **التبر: ص ١١١.**

[٤٧] – **واو الصغرى: ص١٧٦–١٧٧.**

٥. ثنائية (القوة/ الضعف):

كل شيء في الصحراء يتخذ من القوة والضعف طريقًا، في وقت ظن الإنسان نفسه أقوى من الطبيعة التي تحيطه، فما يلبث أن يلقنه الله سبحانه وتعالى درسًا في ضعفه أمامها، ومرة أخرى يأتي ضعفه قوة حين يشكل جانب الخير أو عندما يتحد مع بيئته، فالمفارقات التي طرحها الكاتب في نصوصه لا تكاد تخلو من نظرات فلسفية وصوفية، ربما كان من الصعوبة الشديدة عزل كل فكرة منها على حدة. وربما دلت على عمق المعنى ، وإزدياد الأفكار التي اختزلها الكاتب في الثنائية الواحدة لتشكل عند القارىء أفكارًا عدة يختار منها أنى شاء، ويفهم منها ما أراد.

فيأتي الكاتب في رواية "**نزيف الحجر**" لتأكيد فكرة ضعف الإنسان أمام الطبيعة التي هى من خلق الله سبحانه وتعالى، من خلال حديث الغزالة الأم عن ضعف الإنسان وروحه الحبيسة، إن الكاتب يعرض قدرية الحياة، وأن روح الإنسان في هذه الدنيا مقيدة، لذلك هو يعاند ذلك كله ويحاول أن يعطي الإنسان الحرية في كتاباته، بل تعدى ذلك إلى كل الموجودات، فتقول الغزالة الحكيمة لابنتها الصغيرة وقصت لها حكاية عن الوطن:" **في إحدى الأمسيات إن الخالق لما خلق الروح عين له حدودًا وحبسه في ثلاث سجون: الزمان والمكان والجسد. وقد حقت اللعنة وهلك كل من حاول أن يخرج من هذه الحدود لأن الخالق قدسها وجعلهًا قدرًا في رقبة المخلوق**".[٤٨]

فالكاتب هنا وإن لم يوضح ضعف الإنسان صراحة، إلا أنه ضمن ذلك، فبرغم سطوة هذا الكائن الذي تفوق بقدراته، إلا أنه ظل رهين لغز الروح، ضعيف بكل قواه أمام قوة الله سبحانه وتعالى، فمهما حاول الإنسان الخروج من زمانه تظل روحه حبيسة زمنًا معينًا

[٤٨] . نزيف الحجر :ص ١٠٩.

وعمرًا معينًا لا تستطيع تجاوزه أو نقصانه، ومهما حاول أن يتعدى المكان إلى مكان أكبر يجد أن روحه تهيم في مكان محدد، أما الجسد فلكل روح جسد لا يستطيع أن يتعداها إلى أجساد أخرى.

في محاولة "**أسوف**" استجماع قواه أمام العطش الذي أحل به، وضعفه أمام الموت، يقول الراوي: "لن يتهاون عن النتوء، ولن يرخي أصابعه. الصبر. أوه، كاد ينسى وصية الوالد: "**أوصيك بالصبر. كيف تستقيم الصحراء بدون صبر؟ من لم يوهب هذه النعمة لن يطيب له المقام في الصحراء(...)، حاول مرارًا أن يبتلع ريقه. لا وجود للريق خارت قواه تمامًا. حركة اليدين أصبحت بطيئة. كسلى. جمع كل قوته في يديه جمع قوته الخفية التي زودته بها الصحراء طوال هذه السنين وزرعتها في قلبه. قوة الرجل ليست في جسده إنها في قلبه. (...) مسكينة العجوز. ماذا ستفعل إذا رأت القطيع يعود وحده بدونه؟ ستموت من الخوف. ثم. يا ربي. إنها ستموت أيضًا إذا مات(...) قوة القلب الآن أعطته الصفاء ليرى أنه في موقف أبشع وأقسى من الموت،(...)، لا لا لن يموت. لن يسمح بأن يموت يجب أن يفعل شيئًا للتخلص من الشرك. حرك قدميه، وحاول بكل قوة قلبه أن يبلغ بهما النتوء(...) أنزل رجليه في يأس. أرخى يده اليمنى فتدلت في الهواء. كانت متصلبة كعود طلح،(...)، استرخى، بلغ الضعف مداه، فاستمد القوة من القلب، ولعق بلسانه الجروح على ذراعيه** ". [٤٩]

وعادت الثنائية (**القوة/ الضعف**) مرة أخرى؛ وجاء الكاتب موضحًا قوة الإنسان في الصحراء برغم ضعفه وتفاهته، فهو يقاوم الموت، ويقاوم العطش، وجاءت في "**التبر**": "**ما أقوى الإنسان. الإنسان مخلوق خارق. لم يعرف ذلك من قبل. مخلوق صغير، عاجز، تافه، تقتله بعوضة أحيانًا. وفي نفس الوقت لا يوجد شيء في الصحراء أقوى**

[٤٩] – نزيف الحجر: ص٦٥– ٦٦ – ٦٧.

منه. قدرته على المقاومة تفوق قوة الوحوش. فما سر هذا التناقض؟ هل هو تناقض أيضًا من النوع الذي يتحدث عنه مشايخ الطريقة أمثال موسى؟". [٥٠]

ويكمل في مفارقاته ثنائياته التي يوضح بها تناقض هذا الكون، فيحدث "أوخيد" "مهريه" ويصبره في رحلة الشفاء، ويبين له أن الحياة ليست عادلة، يقول السارد: **"هنا، على الأرض، تكسب الشفاء، وتفقد الجمال. تستعيد العافية وينتزع منك الكمال".** [٥١]

وقد ألم بـ "**أوخيد**" الجوع والضعف، فكاد أن يُهلك، في الصحراء الرميلة، فأكل نعله ليسد هذا الجوع: **"لم يستطع أن يصمد أكثر، فنزع نعله الجلدي. جمع الحطب وأوقد النار، شواه على النار حتى تلوى وانكمش ثم نهشه بشراهة. كان لذيذًا. لا فرق بينه وبين جلود الإبل التي سبق له أن أكلها كثيرًا. تفتحت عيناه بعد الوجبة، وبدأ يبصر خيال الأبلق. خيل إليه أن الجمل يبتسم. عيناه تبتسمان. يسخر منه. قفز وهدده بسبابته، إياك وأن تخبر أحدًا بما رأيت! هل فهمت؟ هذا سر. نزع النعل الآخر، وتفحصه بين يديه. انهار على الأرض. خاطب صديقه كأنه يخاطب نفسه: لا تسخر مني فأنا مخلوق ضعيف. ماذا تظن؟ الفارس أيضًا مخلوق بائس، يأكل نعله عندما يشرف على الموت جوعًا لا تقسني بنفسك(...) الجوع يهين أنبل المخلوقات. السلاطين أيضًا تركع على الأرض إذا جاعت وتزحف ذليلة كالعبيد. فاغفر لي. اغفر لي!".** [٥٢]

فالجوع في الصحراء ذل، يهين النبلاء من الفرسان، يهين السلاطين، لقد وضح الكاتب في ثنائيته الضعف الذي يتعرض له الإنسان بسبب الجوع، الجوع الذي يفقده كل صفات

---

٥٠ – التبر: ص٤٥.

٥١ – التبر: ص٤٦.

٥٢ – التبر: ص٧٩–٨٠.

المهابة، موضحًا في إسقاطه ما يتعرض له الإنسان بسبب الجوع، وتعرض له الدول الممثلة في "السلاطين" فهي تهان كالعبيد.

لا حيلة لك في الصحراء غير المقاومة، أن يأتيك الموت فتفر منه في الصحراء، الكاتب لا ينفك يوضح قدرة الطارقي على مواجهة أصعب الظروف في الصحراء الرملية، بينت الثنائية قوة "**أوخيد**" تجاه بطش الطبيعة، قوته أمام نفسه ومهريه، لقد أسقط كبريائه أمام نفسه وأمام مهريه ليجابه قوة الطبيعة الصحراوية الشرسة والقاسية.

٦. ثنائية (الحضور/ الغياب).

مثلت هذه الثنائية **(الحضور/الغياب)** الجانب الغرائبي في الروايات، فعند وجود شيء يختفي الآخر، وقد عبر عنها الكاتب في كثير من الحالات: "**الشفاء مرتبط بالجنون، إذا لم يصب الحيوان بالخبل لن يطمع في شفاء. إذا لم يذهب العقل لن ترى العافية**". (٥٣)

وعندما حل الشفاء للمهري عُدم الماء: "**بدون الماء لن تتحقق أي معجزة في الصحراء. حتى إذا تحققت معجزة فإن انعدام الماء يمحوها ويحولها إلى وهم(...) جاء الشفاء وغاب الماء. جاءت الحياة فأقبل الموت(...) النعيم مستحيل. إذ احضر الشيء غاب نقيضه. يحلو للشيخ موسي أن يقول: الكمال لله. في الشباب يتفتح الطيش، ولا تحل الحكمة والمعرفة إلا في العجز والشيخوخة**". (٥٤)

وعندما وجد البئر للشراب وكان على حافة الموت، يقول "**أوخيد**": " **الموت أبعد من الصين. شيء آخر. إذا وجدت البئر غاب الدلو. وإذا وجدت الدلو فلا تطمع في البئر.**

---

٥٣ – التبر: ص ٣٤.

٥٤ – التبر: ص ٤٤– ٤٥.

هكذا دائمًا". [٥٥]فبعد أن استنجد بالمهري وساقه إلى البئر وجد البئر عميقًا وبه هاوية ولا يوجد به دلو، المتضادات عند الكوني أعطت للقارئ صورة عن الحياة في الصحراء، فالكمال لله كما يقول الشيخ موسى، وكل شيء يشوبه النقصان. فالصحراء عند الكوني، تمثل الوجود والعدم، تمثل الحضور والغياب، فدائمًا تعطيك الماء لكنها تفقدك النجاة منه.

فجاء مفهوم التقاطب في جميع مظاهر النص الروائي، بما فيها الفضاء والشخصيات والزمن، ولأن الروايات منظمة بنفس الطريقة التي نظمت بها العناصر الكونية والفيزيائية التي يتحقق فيها وجود الإنسان **(الذات– العالم، النهار – الليل، الأعلى – الأسفل، البرودة – الحرارة ، ...)** ويحكمها نفس المنطق الثنائي الذي يقيم التوازن بين العلاقات والتوترات الناشئة ويقيها من الاختلال، فالكاتب وهو يشيد فضاءه الروائي لم يخرج عن هذا القانون أو يخرق ميثاقه، فسواء كان المكان حميميًا أو معاديًا فإنه يظهر دائمًا على تنوع ملحوظ في درجات السيولة والكثافة، الشفافية أو القتامة.[٥٦]

فالكوني يحاول أن يقشر عن الشخصية الصحراوية كل ترسبات الثقافة وصولًا إلى ماهو جوهري وطبيعي وأصيل في هذه الشخصية.[٥٧]

---

٥٥ – التبر: ص٥٠.

٥٦ – بينة الشكل الروائي، مرجع سابق: ص ٩٩.

٥٧ – إبراهيم الكوني ، ذاكرة الصحراء ، إشراف سعاد الصباح ، مجموعة مؤلفون ،تنفيذ دار تحرير دار سعاد الصباح للثقافة والإبداع– الكويت، ج٢– ط١ اكتوبر٢٠٢٢م، ثنائية الطبيعة .. الثقافة في روايات إبراهيم الكوني،ص ٥٨٣.

الخاتمة:

خلص هذا البحث من دراسة الثنائيات الضدية في روايات إبراهيم الكوني "نزيف الحجر، والتبر، و واو الصغرى"، إلى:

١- يتضح لنا في نهاية البحث أن الثنائيات الضدية نوع من تشكل الأدب السردي، وهي الثنائي من الأشياء" ، وهى التي تقول بزوجية المبادئ المفسرة في الكون، كما جاء في المعجم الفلسفي. وهى تعتبر أساس المدرسة البنيوية من خلال النظر إلى النص من جهة التقاليد والرموز.

٢- تواجدها منذ القدم، فقد تعددت آى القرآن الكريم التي تبين هذه الثنائيات.

٣- تواجدها بكثرة في الروايات الثلاث، وقد استخدمها الكاتب لتوضيح المفارقات في البيئة الصحراوية، جامعًا بين الحياة والموت، والصحراء والواحة، وغيرها من الثنائيات ، التي أسقط عليها الكاتب رؤاه الفلسفية، وأفكاره الصوفية، موضحًا لنا أبعاد صحراءه الروحية والمادية.

٤- ربما يظهر لنا في نهاية البحث حول ثنائيات البيئة عند الكوني أن هذه الثنائيات الضدية تندرج جميعًا تحت ثنائية (الطبيعة/ الثقافة)، فلطالما عني الكوني بإظهار كم التضاد بين عطف الطبيعة وشر الإنسان، حتى في أحلك مواقف الطبيعة مع الإنسان فهى لا تهدأ حتى ترأف به، إن غاية الكوني من مزج الثنائيات مع السرد هو توضيح ذلك الفرق الشاسع،

بين نهم البشرية، وجود الطبيعة، بين فقد الإنسان لثاقافته وعاداته ومعدنه الطيب، وبين حنو الطبيعة عليه.

٥-ويمكن القول بأن الثنائيات الضدية هى "التي تشكل جزءًا أساسيًا من الحياة والأدب. وترتبط هذه الثنائيات بالبيئة والكون والمحيط، حيث تمثل وحدة هذا الكون وتماهيه.

استخدم الأديب إبراهيم الكوني هذه الثنائيات ببراعة في رواياته، مما يظهر قوة المفارقة بين المتضادين. يجمع بين الجفاف والحياة، ويصور الصحراء بأبعادها الروحية والمادية.

يبدو أن الكوني يجمع بين الفلسفة والأدب بطريقة مميزة، حيث يستكشف قضايا الوجود والحرية والهوية من خلال تلك الثنائيات. ففي رواياته، يجمع الكوني بين الجفاف والحياة، ويصور الصحراء بشكل مميز. يبدو أنه يستخدم الثنائيات لإلقاء الضوء على التعقيدات الإنسانية والروحانية، ولتجسيد الجمال والتناقض في الحياة.

المراجع والمصادر

- القرآن الكريم، سورة البقرة: الآية ١٦٤.

- إبراهيم الكوني، ذاكرة الصحراء، إشراف سعاد الصباح، مجموعة مؤلفون، تنفيذ دار تحرير دار سعاد الصباح للثقافة والإبداع- الكويت، ج٢- ط١ اكتوبر ٢٠٢٢م، ثنائية الطبيعة .. الثقافة في روايات إبراهيم الكوني.

- بنية الشكل الروائي "الفضاء والزمن والشخصية"، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي – بيروت، الدار البيضاء، ط١- ١٩٩٠م.

- الثنائيات الضدية بحث في المصطلح والدلالة: سمر الديوب، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية العتبة العباسية المقدسة، ط١-٢٠١٧م-١٤٣٩هـ.

- الثنائيات الضدية دراسات في الشعر العربي القديم، سمر الديوب، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق٢٠٠٩.

- الثنائيات الضدية في لغة النص الأدبي بين التوظيف الفني والذوق الجمالي، أ. علي زيتونة مسعود، جامعة الوادي، الجزائر.

-الثنائيات الضدية وأبعادها الدلالية في الأسطورة عند كلود ليفي شتراوس . أ.محمد بو ذينه، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها- العدد الثالث عشر- (ج١) .جانفي ٢٠١٨،جامعة الوادي – الجزائر.

- النقد البيئي مفاهيم وتطبيقات، مجموعة مؤلفون، تحرير: أبو المعاطي الرمادي، معجب العدواني، مؤسسة الانتشار العربي- الشارقة- الإمارات، ط١-٢٠٢٢م.

- رواية التبر: إبراهيم الكوني، دار التنوير للطباعة والنشر، تأسيلي، بيروت – لبنان، ط٣-١٩٩٢م.

– رواية نزيف الحجر: إبراهيم الكوني: دار التنوير للطباعة والنشر، تأسيلي للنشر والإعلام، بيروت– لبنان – الطبعة الثالثة ١٩٩٢م.

– رواية واو الصغرى: إبراهيم الكوني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – ط١–١٩٩٧.

– كلود ليفي ستروس: عالم اجتماع وأنثروبولوجي فرنسي، يعتبر فيلسوف البنيوية أو المنهج البنيوي. الجزيرة،WWW.ajnet.me .

– لسان العرب، ابن منظور، تحقيق (عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي) مجلد ،١. ط. دار المعارف.

– وجه آخر للصحراء في أعمال إبراهيم الكوني: د. حسن لكرومي، جامعة بشار– الجزائر.

–إبراهيم الكوني: كاتب وأديب ليبي، ولد في الصحراء الكبرى ، جنوب غرب ليبيا، تحديدًا في جبل نفوسه، عام ١٩٤٨م، له العديد من الروايات والكتب في الفلسفة واللغة والأدب، مايقارب المائة كتاب، وترجمت كتبه للغات عديدة ، وقد حصل على العديد من الجوائز العالمية. إبراهيم الكوني ذاكرة الصحراء، مجموعة مؤلفون، إشراف سعاد الصباح، تنفيذ هيئة تحرير دار سعاد الصباح للثقافة والإبداع .ج١– ط١– أكتوبر ٢٠٢٢م.

Binary Oppositions and Environmental Representation in Narrative Fiction by Ibrahim Al-Koni

Abstract

Binary oppositions in the environment are represented in various ways and forms, such as (life and death), (night and day), (drought and rain), and (justice and injustice), among others. These dualities are fundamental components of life, reflecting contrasting elements that coexist within our world. They connect the environment to the broader universe surrounding humanity, creating a harmonious unity. Dr. Samar El-Dayoub, in her book "Binary Oppositions: Studies in Ancient Arabic Poetry," discusses these dualities and their significance. In philosophical terms, binary oppositions refer to "pairs of things that have two opposing aspects." Philosophers have explored various divisions, including social dualities (wealth/poverty) and political dualities (justice/injustice).

As for the acclaimed writer Ibrahim Al-Koni, he frequently employs binary oppositions in his novels, particularly in works like "the Gold Dust," "The Bleeding of the Stone," and "Waw Al-Saghirah." Al-Koni uses this literary device to convey deeper meaning and philosophy, emphasizing the power of contrast between opposing elements. His literary prowess lies in seamlessly weaving these dualities into his narratives.

Through his philosophical and creative perspectives, Al-Koni sheds light on existential themes, freedom, and identity. His exploration of the desert and life within it reveals how circumstances shift from life to death, growth to barrenness, and rain to drought. Within these narratives, individual dualities branch out into multiple facets, such as the duality of (life/death), which encompasses various sub-dualities like (flood/drought),

(strength/weakness), and (day/night). Al-Koni skillfully portrays the ever-changing desert environment.

The research also delves into dualities such as "(desert/oasis)," "(good/evil)," "(life/death)," "(human/animal)," "(strength/weakness)," and "(presence/absence), (holy/desecrated). Al-Koni's use of binary oppositions extends beyond mere literary technique; it becomes a natural extension of the evolution of traditional Arabic narratives.

In the realm of modern literary criticism, the utilization of binary oppositions allows for boundless intellectual exploration. Critics unravel literary puzzles through the intricate complexities of these opposing concepts, as exemplified in Al-Koni's writings.

Keywords : Environment, binary oppositions, Ibrahim Al-Koni.